إنها ليلة سوداء

هبة الله محمد - ليلى الديب

.

الفصل الأول

إنها ليلة سوداء، ليلة سوداء بحق، هكذا كان يفكر عبد الرحمن عبد الحي وهو يجلس في ردهة بيته فيما يشبه اجتماع عائلي مع بناته الأربع وزوجته واثنين من أزواج بناته.

كان المطر يهدر بالخارج ممتزجا بصوت الريح وصوت الرعد ويكاد يطغي على حديثهم. من الرائع أن يشعر المرء بأنه آمن بالداخل بجوار شعلة المدفأة ودفء وجود آخرين. يرتعش لو فكر للحظة في أنه كان من الممكن أن يكون بالخارج مع البلل والوحل والبرد.

وعاد عبد الرحمن يفكر، ليلة سوداء ككل الليالي التي رآها منذ أن تزوجت بناته الثلاث لحسن الحظ أن الرابعة لم تتزوج بعد، وقد بدأ يفكر في التصرف كوالد (إليزابيث بروانتج) الشاعرة الشهيرة والذي كان يمنع أبناءه من الزواج. فلو تزوجت ابنته الباقية فسيضاف وغد رابع إلى قائمة الأوغاد الموجودين، لكن ، لا بأس، إن غرقت مركبك أعطها دفعة للداخل ، هكذا يقول المثل، وهو قد صار يائسا تماما.

كان لديه ألعن مجموعة من أزواج البنات أو ألعن مجموعة من البنات لأنهن أتين لوالدهن بأزواج كهؤلاء. في لحظات كهذه يحسد جاره حسام الذي تجاوز الثلاثين ولم يتزوج بعد. لو كان تأخر في الزواج مثله فلربما كانت هذه المشكلات قد تأخرت أيضا ولربما كان قد مات قبل أن تحدث لكنه كان أحمق كأي شاب آخر متلهف على الزواج ، يعتقد أنه سيحصل على السعادة الأبدية التي لم يحققها من سبقوه لأنهم أغبياء و.....ومن جديد قاطعه صوته ابنته (ندى) وهي تنتحب:

- "الجبان، لم يمض على زواجنا سوى أربعة أشهر."

كانت قد كررت هذه الجملة نحو عشر مرات تقريبا ، والرائع أنهم جميعا يعرفون أنها تزوجت منذ أربعة أشهر تقريبا، أربعة أشهر لعينة لم تخل من مشكلة.

يجلس في البيت فتكون مشكلتها أنها لا تحصل على حريتها، يخرج كثيرا فتشعر بالضيق من عدم وجوده. لابد من شيء ما يثير ضيق ابنته ندى ويجعلها تنتحب كما تفعل الآن تماما. والحقيقة أنه أحيانا ما كان يتعاطف مع زوج ابنته بقدر ما هو مغتاظ منه.

المشكلة هذه المرة كانت أن زوجها صار يقضي معظم الليل بالخارج ولا يعود إلا عند الفجر، مدعيا أنه أصبح يكلف بعمل ليلي في الشركة وهو ما تأكدت هي من كذبه وهاهو يختفي لليلتين متتاليتين ولم يظهر حتى الآن، وهذا ما جعل (ندى) زوجته والابنة الثالثة لعبد الرحمن عبد الحي لا تكف عن

الولولة حتى شعر أبوها برغبة عارمة في إلقائها من النافذة، مهما كانت العواقب ومهما كان الطقس بالخارج.

بينما تنحنح (وائل) زوج ابنته الكبرى (هدى) ليتكلم، فعرف عبد الرحمن أنه سينطق كفرا كعادته:

- "اسمعيني يا ندى. ليس معنى أن زوجك يقضي الليل بالخارج أنه لا سمح الله يعرف امرأة أخرى أو أنه يزور أماكن مشبوهة. هناك أسباب قهرية قد تدفعه إلى ذلك."

إن من يسمع الجزء الأول من كلام وائل يحسبه شابا عاقلا متزنا لكن ولأن حماه العزيز يعرفه جيدا لذا فقد كان واثقا مما سمعه بعد قليل.ردت (ندى) وهي ما تزال تنتحب:

- " أسباب أخرى مثل ماذا؟"

- "يعني لو كان يختفي ثلاث ليال في منتصف كل شهر فإن احتمال تحوله لرجل ذئب كبير، أما إن كان يختفي كل يوم فقد تكونين يا عزيزتي قد تزوجتِ بمصاص دماء حقيقي."

- "قم اغسل يديك يا وائل.."

قالها عبد الرحمن عبد الحي وهو يكتم غيظه كي لا يحطم رأس زوج ابنته. فتنحنح وائل في حرج وهو ينهض من على مائدة العشاء، بينما نظرت زوجته (هدى) إلى والدها بعتاب لكنه لم يكترث كثيرا فلقد كان منشغلا بتذكر سوابق وائل من أيام الخطبة وحتى الآن. والمصيبة أنه جعله يأخذ شقة

معه في نفس البناية. كم كان مغفلا وقتها!! كان كل ما يريده ألا تبتعد ابنته عنه، والآن هو يدفع ثمن هذا فمجرد رؤيته لوائل في صباح كل يوم كفيلة بجعل مزاجه عكرا اليوم بأكمله.

كان وائل يعتقد في كل تلك الأمور الغريبة ويتعامل معها على أنها حقيقة. وقد أسس جمعية روحية على غرار الجمعيات التي كانت منتشرة في بدايات القرن العشرين فيما عدا أن نشاطها يتجاوز تحضير الأرواح ليشمل كل الأمور الميتافيزيقية وعلوم ما وراء الطبيعة.

لم تكن هذه هي المشكلة لكن المشكلة في أن وائل كان يطبق كل هذا في الواقع تطبيقا حرفيا. ففي إحدى مواقفه المشهودة كان التيار قد انقطع عن المنطقة بأكملها وكان ذلك أثناء اجتماع سكان البناية لمناقشة إحدى المشكلات فحاول أحدهم أن يشعل شمعة عندما خيل لوائل أن كف الرجل قد مر على اللهب دون أن يحترق أو يشعر بشيء فما كان من وائل لكي يتأكد من الحقيقة إلا أن أطفأ عود ثقاب في مؤخرة رقبة الرجل و.....يمكنك أن تتخيل ما حدث بعدها. وحتى الآن يتمنى عبد الرحمن لو أنه ترك وائل للرجل ليقتله ويرتاح منه!!!

- "أقسم بالله أن يده قد مرت على اللهب دون أن تهتز له شعرة، لقد اعتقدت أنه شبح!!"

هذا ما ظل وائل يردده بعد الحادث وفي كل مرة كان عبد الرحمن يبتلع قرص الضغط ويحاول ألا يرد.

- "رجل ذئب، مصاص دماء، عِفريت أزرق، المهم أن أعرف أين ذهب عصام الخائن النذل ال....."

قاطع سيل السباب الذي أخذت (ندى) تنعت به زوجها صوت جرس الباب. نهضت (صوفي) الابنة الصغيرة في رشاقة لتفتح. طالعهم وجه شاحب كريه بمجرد أن نظر إليه عبد الرحمن عبد الحي حتى تأكد أنها ستكون ليلة سوداء، ليلة سوداء بحق ربما أسود مما تخيل!!

الفصل الثاني

تتساءلون جميعكم ما الذي كنت أفعله بالخارج في ليلة ممطرة كهذه ؟ بالطبع لن أجيبكم . يكفى ذلك الاستقبال الفاتر الذي قابلني به حماي المستقبلي الأستاذ عبد الرحمن عبد الحي. أعرفكم بنفسي أولا ، أنا هيثم خطيب الابنة الصغرى لرجل القضاء النزيه والذي حصل على معاش مبكر بسبب نزاهته هذه!!

لسنا هنا لنسرد قصة حياة هذا الرجل لذلك دعونا نستكمل ما كان يحكيه هو لكم. لقد اتصل بي عصام زوج ندى أخت خطيبتي وطلب منى الذهاب إلى بيت حماي العزيز لأن خطيبتي في حالة

حرجة جدا، بين الحياة والموت كما قال بالحرف، هكذا وجدت نفسي مرغما على ارتداء أثقل ملابسي والخروج في تلك الساعة المتأخرة من الليل والذهاب إليهم مباشرة.

" رغم الأمطار والبرق والرعد أنا قادم يا حبيبتي، ولئن خطفك الموت منى سيجد بجوارك جثتي"

لا داعي للتصفيق، أعلم أنني شاعر فاشل جدا ، ولكنني مغرم من الدرجة الأولى.

نظرت إليّ (صوفي) بدهشة ونظرت إليها بحنان جارف، وقبل أن انطق وأقول:

- " هل أنت بخير يا حبيبتي ؟ "

وجدت أباها يقول بحنق:

– " وها قد جاء ذو الوجه الشاحب ، إنها ليلة سوداء بحق!!"

لم افهم ما قاله ولم أحاول حتى أن افهمه. جذبتني (صوفي) من يدي وأدخلتني وما إن أغلقت الباب حتى قالت لي بصوت هامس:

- " ما الذي جاء بك إلى هنا في ذلك الوقت المتأخر من الليل ؟"

تنحنحت كعادة الشعراء قبل أن أقول :

- "جئت للاطمئنان عليك .. فلقد قال لي عصام أنك ..."

ما إن نطقت اسم عصام حتى وجدت الجميع يلتف حولي. ندى تكشر عن أنيابها وهى تقول:

- "الوغد .. أين قضى ليلتين كاملتين خارج المنزل ؟ "

وعمى العزيز الرائع قال لي :

- " هل ارتكبتما جريمة ما ؟اعترف سنسوى الأمر معا. أعلم إنها ليلة سوداء بحق ".

أما وائل فنظر مليا إلى وجهي قبل أن يقول بخوف:

- " ابتعدوا جميعكم ..ألم تلاحظوا وجهه الشاحب بعد ؟".

ظننت انه يشفق لحالي فإذا به يقترب منى على حين غرة ويحشر حزمة ثوم كاملة في فمي ويطلب من زوجته تكبيلي إلى أن يأتي بالوتد الخشبي والذي لحسن حظي يحتفظ به في شقته والتي هي ويا لسعادتي في نفس البناية التي يقطن فيها حماي العزيز!!!

قال عمى في برود :

- "ألم أطلب منك منذ قليل أن تذهب لتغسل يدك يا وائل؟"

أما حبيبتي فاقتربت منى بحنان ونزعت الثوم من فمي .. وبرقة أكثر قالت :

- "ما كان عليك أن تأتى اليوم يا هيثم "

اقتربت أكثر من المدفأة لان أسناني كادت أن تتحطم وهى تصطك ببعضها .. لم أفكر وقتها عن سبب وجود مدفأة ونحن في القرن الحادي والعشرين ، يكفيني فقط الشعور بالدفء .

- " ألن يقدم لي احد أي مشروب هنا؟"

قلتها بعد أن تأكدت من أنه لا أمل لي في الحصول على شيء، وكأنني طلبت منهم أحد المحرمات مثلا أو لبن العصفور ! .. لماذا ينظرون إليّ هكذا ؟

تجاهلني الكل تماما وقالت ندى وهى تنتحب :

- " تصور يا أبى أربعة أشهر كاملة – وهى مدة زواجي به– ولم أنعم معه بيوم واحد فيهم .. وها هو يتغيب يومين دون أن يخبرني أين ذهب ".

هنا انقطع التيار الكهربائي فجأة وانطفأت النار أيضا. إنها ليلة اشد سوادا مما كان يظن حماي المستقبلي – أو عمى كما أحب أن أناديه أحيانا – قمت من جانب المدفأة وجلست بجوارهم، فأنا كأي ثرثار أدمى، لا يحب أن يجلس وحده في الظلام أبدا .

مشكلتي أنني مشع أحيانا ، للأسف كنت ارتدى بعض الأشياء الفسفورية اللون، مما جعل شكلي سخيفا بالنسبة للبعض ، ومضحكا بالنسبة للبعض الآخر، ومرعبا أيضا بالنسبة لشخص اعتقد أنكم قد خمنتم من هو!!

هكذا جلست في صمت أراقب ردود أفعال الآخرين. ذهب عمى ليحضر شمعدان الشمع من الحجرة المجاورة، وطلب من وائل أن يكف عن التحديق بي كأني شبح، فأسرع هذا الأخير ليحضر بعض

الحطب من شقته كي يشعل المدفأة مرة أخرى. لن أتعجب إن احضر معه فيلا ازرق أو مخلوقا غريب الشكل قذفه المريخ مباشرة إلى شقته !

أما عن (منى) الابنة الثانية لـ عبد الرحمن عبد الحي فقد نامت من قبل أن ينقطع التيار الكهربائي هي وزوجها على المائدة .

الفرصة لا تأتى مرتين ابدأ وهذه هي فرصتي، قمت بهدوء لاقترب من (صوفي) حبيبتي، فإذا بزوجة دراكولا تعترض طريقي قائلة باستخفاف لا استحقه منها :

- " عندك .. هل تظن نفسك في منتزه هنا ؟ ".

هكذا جلست مكاني أعض على أناملي إلى أن جاء حماي العزيز وكان يحمل معه اغرب شمعدان قد تراه في يوم ما، شمعدان من العصور السحيقة جدا، أقرب ما يكون هو وحامله إلى العصر الذي عاش فيه (فلاد الولاشى) ، هنا حانت منى التفاته بسيطة نحو الحائط، كيف لم ألاحظ من قبل كل هذه اللوحات المعلقة على الحائط ؟ أنا بطبعي لا اهتم كثيرا بالفن إلا إذا كان مسموعا أو مكتوبا، ولكن هذه اللوحات تختلف، إن بها سحر ما . أراهن على أنها أصلية كلها، رغم أنني اعرف حالة حماي المادية إلا أنني اقدر الفن الأصلي حين أراه . وضع عمى الشمعدان على المائدة بعد أن

سمع صريرا يأتي من ناحية المطبخ ، وأواني أظنها تحاول أن تكسر حالة الصمت فهشمت نفسها بنفسها،قال عمى مبررا :

- " إنها الرياح .. يبدو أن أحدهم ترك النافذة مفتوحة ".

كنت بحاجه إلى أن أصدقه، لو قال بأن الفئران هي من ترقص الآن ويرتفع صوت غنائها لدرجة أنه أحيانا يغطى على صوت الرعد وصوت عمى ذاته لصدقته على الفور!!

اقتربت منى (صوفي) وملست على شعري وبهمس قالت :

- " ما كان يجدر بك أن تأتى إلى هنا في هذه الليلة ".

- "اعترف أنني أحمق وغبي ، ولكن كان ولابد أن اطمئن عليك ."

زمجر عمى عندما رآها تتحدث معي وقال ناظرا إلى (ندى) التي ويا للعجب قد نسيت الحديث عن زواجها من عصام منذ أربعة أشهر وقال لها :

- "أين أمك ألم تنتهي من التهام عشاءها بعد ؟"

حركت (ندى) رأسها علامة النفي وقالت :

- "تصور يا أبى ، كل هذه السنين التي عشتها مع أمي ولم تفارقها ليلة واحدة ، وأنا لم يمر على زواجي سوى أربعة أشهر فقط ، وها هو يتركني ليلتين كاملتين بدون أن يتصل حتى بي ..الوغد الجبان الـ ....."

قلت لـ (صوفي) بعد أن تأكدت من أن سباب (ندى) سيشغل عنى أباها بعض الوقت :

- "ألم تقولي لي بان أمك متوفاة منذ أن كنت صغيرة ؟"

هنا ضربت العاصفة النافذة أو ضربت النافذة العاصفة. كل شيء في هذا البيت غير طبيعي. هو قديم أكثر من اللازم ، لا أعرف إن كنت مخطئا بخصوص تلك الأشياء أم لا ولكنني متأكد من شيء واحد فقط . هذه ليست عائلة عبد الرحمن عبد الحي التي أعرفها !!

الفصل الثالث

عصام هذا لص أو مدمن مخدرات أو على أفضل تقدير تاجر مخدرات عتيد!!! هكذا كانت تفكر خالة ندى وهي تصعد الدرج بصعوبة بسبب خشونة الركبتين التي تعاني منها. كان هذا رأيها فيه منذ اللحظة الأولى التي رأت فيها وجهه، إنه (شمام) بتشديد الميم، بمعنى أنه يشم شيئا ما!!! وهو اللقب الذي كانت أمها رحمها الله تطلقه على كل شاب رقيع من أمثاله، لكن (ندى) الحمقاء تعلقت به كطفلة بلهاء:

- "أحبه يا أبي!!!"

كل هذا وهى لم تكن رأته سوى منذ ساعتين!!!والآن تجيء إليها لتولول وتقول إنه مختف منذ يومين، ليختف أو ليذهب إلى جهنم الحمراء، فلتحمد الله أنه لم يعلمها شم المخدرات مثله!!!

أوصلها عم محمد السائق إلى هنا وهو يسألها ما الذي يخرجها في ليلة كهذه، فأخبرته إنها (الأخولة) وهو شعور يشبه الأمومة لكنه لن يفهمه أبدا لأنه لم يكن ولن يكون خالة بالتأكيد!!

بمجرد أن صعدت أول درجتين حتى انقطع التيار أيضا، ما شاء الله هذه الفتاة مبروكة فعلا، هذا ما كان ينقصها!!!

إنها بالكاد تصعد الدرج فما بالك وهي لا ترى ما أمامها؟ تمسكت بالحاجز وبدأت تصعد ببطء أكثر،أخيرا وصلت وهي تلهث تقريبا، هذا هو الطابق على ما تحسب، دقت الجرس قليلا ثم انتظرت قبل أن تتذكر أن الكهرباء مقطوعة فبدأت تدق الباب، سمعت همهمات خلف الباب، لابد وأن كلهم متكاسلون وكل واحد ينتظر أن يقوم الآخر ليفتح،أخيرا انفتح الباب ثم ظهر وجه نحيل شاحب، انعكست عليه الإضاءة الصفراء لضوء الشموع فبدا مخيفا، قال بصوت رفيع كنميم فأر:

- "أي خدمة؟"

- "أليست هذه شقة الأستاذ عبد الرحمن عبد....."

- "الشقة خطأ!!"

قالها اللعين ثم أغلق الباب في وجهها ، كأنها طلبت رقما خاطئا في الهاتف، دون حتى أن يعزم عليها قائلا: تفضلي يا خالتي أو أي شيء من هذا القبيل، لتغيظه دقت الجرس ثانية، لعنة الله على تصلب الشرايين، التيار مقطوع بالطبع، لقد نسيت بسرعة، طرقت على الباب مرة أخرى، فخرج الوجه الفأري ذاته متمتما من بين أسنانه:

- "هذه ليست شقة الأستاذ عبد الرحمن عب....."

- "أعرف، لكن هل تعرف أية شقة هي؟"

- "إنها بالطابق الأسفل، كما أنكِ قريبتهم، من المفترض أن تعرفي وحدك.."

الوغد!! إنه يعرفها، لابد وأنه رآها هنا من قبل، ومع ذلك لم يعزم عليها بالدخول و.....هنا شعرت بالباب يغلق في وجهها مرة أخرى فابتلعت الإهانة واتجهت لتنزل، على أية حال النزول أسهل من الصعود، لو كان عليها أن تصعد طابقا آخر لكان هذا أسوأ.

بدأت تنزل ببطء من جديد وبمجرد أن أصبحت أمام بسطة السلم الخاصة بشقة عبد الرحمن حتى شعرت بشيء ما يصطدم بها في الظلام، بالأصح شخص ما لكن ملمسه كان غريبا ومنفرا، سمعت صوته يهمهم بكلمات مبهمة وهو يبتعد عنها، من هذا؟ يا لتلك البناية الغبية التي اختار زوج أختها السكن فيها، اعتدلت في وقفتها، وهذه المرة تذكرت أن التيار قد انقطع فدقت الباب مباشرة، خطوات أحدهم يتجه إلى الباب، كانت الصغيرة صوفي:

- "خالتي مرحبا بك."

هكذا قالت صوفي وهي تعانقها، بينما رأت وجه عبد الرحمن المكفهر من خلفها وهو يقول:

- "ما الذي أتى بكِ في هذا الوقت يا عطيات؟"

هذا الرجل لا يطيقها وهي بالمثل لا تطيقه، إنها تمثل له الحماة الشرسة وهو يمثل لها زوج الابنة النمرود حتى بعد أن أصبحا في مثل هذه السن، لكنها تشفق عليه فمنذ تزوجت بناته وقد أصبح كائنا بائسا لا يستحق سوى الشفقة لكن لابد من بعض المشاغبات أحيانا إذ أنهما لا يتفقان أبدا:

- "ابنتك ندى هي من اتصلت بي"

نظر عبد الرحمن إلى ندى وهو يوشك على خنقها بينما قالت ندى وهي تقسم:

- "بالله العظيم لم اتصل بأحد."

لكن عبد الرحمن متأكد من كونها اتصلت بخالتها، يستطيع أن يتخيل ندى وهي تولول في الهاتف:

- "الجبان، لم يمض على زواجنا سوى أربعة أشهر!!!"

لقد اتصلت ندى هذا أمر لا يحتاج إلى جدال!!

- "هل خرج أحد من عندكم منذ قليل؟"

رد عبد الرحمن بسماجة:

- "من هنا بالتأكيد لا، ربما من عند أحد الجيران، الذباب يجتمع هنا لكنه لا يذهب، فهيثم قد هل قبلك بقليل!!"

شعر هيثم بالحرج بينما كتمت الخالة غيظها، هو يشبههم بالذباب ، حسنا لو كانوا هم ذبابا،إذن فشقته مقلب قمامة!!!

سمعت عبد الرحمن يواصل:

- "تصوري يقول أن عصام هو من اتصل به!!"

ثمة شيء ما غير مريح في كل هذا،هو ذكر شيئا ما عن الذباب ،هي تعرف ذلك السائل الذي يباع في الصيدليات والذي يجذب الذباب برائحته وما إن يتجمع الذباب عنده حتى يقتله،إنها تشم رائحة مماثلة هنا، هناك من يجمعهم لغرض ما لا تعرفه!!

- **هبة الله محمد**

*** "

ثمة أنفاس كريهة تدق بابي في هذا الوقت المتأخر من الليل، حتى بعد أن تسببت كالعادة في انقطاع التيار الكهربائي عن البناية كلها وربما عن الشارع بأسره بسبب أحد اختراعاتي العبقرية، يأتي أحدهم ويدق بابي. تبا، لن أفتح ، ولكن ماذا لو كان الطارق هو عصام ؟!!

ذلك الأفاق المخادع ضرب لي موعدا منذ يومين لنجرب أحد الاختراعات معا ولكنه لم يأتِ، الغريب في الأمر أن الجهاز نفسه اختفى ولا أدرى كيف حدث هذا؟ لقد غفوت لحظة واستيقظت وهكذا

وجدت الشقة مهندمة على غير العادة ولم أجد الجهاز اللعين، هكذا جلست ساعات طويلة في إعادة صنع جهاز آخر، فلا جدوى من البحث عن (عصام) اللعين، فالجميع يبحث عنه وإن وجدوه سأكون أول من يقتص منه .

تبا الطارق مصر على الدخول . لو كان عصام فلن يكفيني شرب دمه . فتحت الباب لأجد عنكبوت شمطاء ولكنها تحتفظ ببقايا جمال وإن كان قد ذبل تماما .

قلت وأنا أحاول ألا أدوسها بقدمي كما أفعل مع أي عنكبوت داخل رأسي:

- "أي خدمة؟"

قالت وهى تحاول انتزاع الأكسجين من أمام شقتي انتزاعا وكأنها حرمت منه:

- "أليست هذه شقة الأستاذ عبد الرحمن عبد....."

- "الشقة خطأ!!"

قلتها وأغلقت الباب مباشرة. تلك العنكبوت تستهلكني أنا ذاتي ولا تكتفي بالأكسجين فقط ، ولدهشتي وجدتها تطرق الباب بعد ثانية واحدة من غلقي له ، ألا يوجد لديها دم ؟

هذه المرة لن اسمح لها بالتحدث أنا من سيتكلم أولا وأخيرا أيضا:

- "هذه ليست شقة الأستاذ عبد الرحمن عب....."

- "أعرف، لكن هل تعرف أية شقة هي؟"

- "إنها بالطابق الأسفل، كما أنكِ قريبتهم من المفترض أن تعرفي وحدك."

وأغلقت الباب في عنف تلك المرة. إنها تستحق، كل من يمت بصلة للأستاذ عبد الرحمن عبد الحي يستحق تلك المعاملة بل وأسوأ منها أيضا. ذلك المستشار الذي يظن بأن الجميع يجب أن يعاملوا كسجناء وهو وحده من يصدر حكم البراءة على من يشاء منهم .

تصوروا ذلك المعتوه يحسدني لأنني لم أتزوج بعد . عبقري مثلى لا يجب أن يتزوج إلا من سلحفاة جاءت من العصر الجوراسى ولكن من منا يستطيع أن يذهب إلى هناك ؟

تبا لتلك العجوز العنكبوتية ألن تكف عن إزعاجي!!! فتحت الباب للمرة الثالثة فإذا بي أجد لفافة بها طفل رضيع. قلت في نفسي عنكبوت صغير إذن يستحق أن ينتقل معي إلى العصر الجوراسى، ولكنني لن أفعل لقد نسيته تلك العجوز أمام شقتي وكأنها خلعت حذائها لتتخلص من الآم الظهر، هكذا كنت مضطرا إلى حمله والذهاب به مباشرة إلى .....

شقة الأستاذ عبد الرحمن عبد الحي!!

طرقت الباب مرة وثانية وثالثة ، وقبل أن أترك الطفل أمام شقتهم وأصعد الدرج، وجدت من يتلصص علي من فتحة في الشقة المجاورة . أقسم على أن عينيه كانت تضئ وكأنها كشاف،

ذلك الجو الذي يخبرك بأن اللحظة القادمة ستقتل فيها، أحدهم ينتظرك كل هذا الوقت ليلقى بك من حافة السلم لتتهشم عظامك وتتحول إلى طحين يصلح ليكون طعاما لعنكبوت ما .

"اصعد يا حسام .. اصعد إلى شقتك ".

هكذا يدوى الصوت في رأسي ولكن قدمي تأبى التحرك قيد أنملة، صوت خطوات يمتزج بصوت الرعد. وصوت عظام تعلن رغبتها في عدم الخضوع للتهشيم الآن، ربما بعد سنة ستستسلم. عبقري مثلى يحق له أن ينتظر قليلا كي يكتشف الناس مدى عظمته ثم .....

انفتح الباب، باب شقة الأستاذ عبد الرحمن عبد الحي .. نسيت أن أخبركم أن اللفافة التي كانت تحتوى على الطفل قد تبخرت تلاشت من ذلك العالم تماما !!!

- نجمة مجهولة * .

الفصل الرابع

- "إنها ليلة سوداء "

بهذا غمغمت (لمياء الزيني) وهي تنهض من فراشها ، كانت هذه هي المرة الرابعة التي تستيقظ فيها خلال ساعتين إثر بكاء طفلها الرضيع، وقد صارت متأكدة تماما الآن أن هذه كانت أحد أساليب التعذيب لدى النازيين، تجعل الأسير ينام، وما إن تغفو عيناه حتى توقظه من جديد، في النهاية يصبح كالمجانين ويكون جاهزا للاعتراف بأي شيء يعرفه أو لا يعرفه!!

كان زوجها نائما في سلام كعادة الأزواج لا يشعر بشيء كأن أذنيه مزودتان بكاتم صوت خفي!!

من جديد عادت إلى إرضاع الصغير وهي تحاول أن تتمالك نفسها كي لا تتصدر صورتها صفحات الحوادث أو تحجز غرفة مستديمة في مستشفى المجانين!!

نام الصغير أخيرا وفي سرها بدأت تدعو الله ألا يستيقظ من جديد بنفس السرعة، على أية حال كانت هي قد قررت ألا تنام ثانية حتى تتأكد أن الرضيع قد نام نهائيا ثم تنام.

مشكلة الرضع أنهم يقرءون الأفكار ويعلمون اللحظة التي تقرر أن تغفو فيها كي يستيقظوا!!

خرجت إلى الردهة الباردة ورأت أن تعد مشروبا ساخن يدفئ أوصالها في البرد القارص.

تأخر الشتاء كثيرا هذا العام كعادته في الأعوام الأخيرة، فقط ليظهر مرة واحدة بكل وقته، فكرت في القهوة لكنها خافت أن تساعد على إيقاظ الصغير أكثر ، يقولون أن الأمهات المرضعات اللاتي يتناولن القهوة أو الكافيين يزداد معدل استيقاظ أطفالهن عند منتصف الليل وهي تقسم أنها لم تلمس كوب شاي منذ يومين فلماذا يستيقظ ذلك العفريت الصغير!!

حسن لتكن القرفة، هي مشروب مناسب يساعد على وصول الدم للأطراف وهو مناسب لهذا البرد، أعدت المشروب بسرعة عبر الغلاية الكهربائية ثم جلست قريبا من النافذة ترقب الشارع الممطر الخاوي عبر الزجاج، يا له من جو شاعري حالم كان يلهمها قديما أما الآن فأنى لها بالمشاعر وقد طار عقلها من الأصل؟!!

ارتشفت رشفة وهي تلمح شبحا يلج الشارع ويتحرك بسرعة، خيل إليها أن هذا القوام النحيل مألوف، الهيئة التي تبدو اقرب إلى هيئة صبي مراهق وهذه المشية تعرف صاحبها جيدا، إنه.....زوجها، لكنها رأته نائم في الفراش منذ قليل، هل فعلت بها قلة النوم كل هذا؟ لتتأكد أولا.

نهضت، وفتحت باب الغرفة، لا أحد، تلك الخدعة الطفولية القديمة التي أحرقتها السينما مرارا، وسادة طويلة نائمة أسفل الأغطية!!

زوجها ليس هنا، عادت بسرعة إلى النافذة، ما الذي يفعله في الشارع في ساعة كهذه، وفي مثل هذا البرد، ؟ وما هذه الحقيبة التي يحملها في يده؟!!

رشفت رشفة أخرى من المشروب دون وعي وعادت تتابعه من جديد وقد طار النوم من عينيها تماما!!

***

العواء، وسمعت صوت العواء القادم من الخارج، ذئاب في وسط القاهرة!!

هل جننت أخيرا يا حسام؟!! لكن ذلك الصوت الحزين الكئيب الغامض الذي يبعث القشعريرة في الجلد لا يمكن إلا أن يكون عواء ذئب.فتحت النافذة لأرى اغرب مشهد رأيته في حياتي، عربة سوداء قاتمة تجرها خيول أكثر قتامة وسوادا من قلب الليل، ومن حولها رأيت الذئاب تسابق الخيول وتعوي بصوت قادم من أعماق الجحيم، يا إله السماوات، أغلقت النافذة بسرعة، ووقفت ألهث في فزع.

أين رأيت هذا المشهد من قبل؟ بالأحرى في أي فيلم شاهدته؟

نعم ، الكونت دراكولا هذه عربته، كما شاهدتها في أفلام الرعب وكما تخيلتها في كل كوابيسي، الآن تأكدت فعلا أنني جننت!! تجاوزت تلك الشعرة البسيطة بين العبقرية والجنون، كنت أتوقع هذا يوما لكن ليس بهذه السرعة!!

أفق يا حسام،أنت على أبواب أعظم اختراع في حياتك بل في حياة البشرية ليس هذا هو الوقت المناسب للهلوسة والجنون!! وفجأة رأيت أمامي تلك القطة، قطتي العزيزة التي ماتت منذ شهور في واحدة من تجاربي الفاشلة، يا لسعادتي لرؤيتها أوشك أن أربط وسطي بحزام وأرقص ولا بأس من كسرولة فوق الرأس لقد جننت ، زغرودة من أجل الفرح يا بنات!!

لكن لحظة، بالفعل كيف كان الأمر غائبا عن ذهني؟ الآن أفهم كل شيء، اللعين عصام لقد فعلها ، لابد وأنه هو من فعلها ومن يكون غيره!! لقد سرق الجهاز وجربه دون علمي، وربما شغله بطريقة خاطئة أيضا، هذا الخلط بين الأزمان والأماكن الذي أراه الآن، القطة مع الكونت دراكولا مع أشياء أخرى قد تظهر لا يعلمها إلا الله، لا تعني سوى شيئين إما أن التجربة فشلت والجهاز يعمل بصورة خاطئة أو أن عصام أخطأ في تشغيله فتسبب بالمصيبة التي حدثت الآن ،والاحتمالان ألعن من بعضهما!!

ثمة معلومة تاريخية لطيفة قد استفدتها الآن وهي أن الكونت دراكولا ليس أسطورة كما كنا نعتقد، مع هذا المشهد الذي رأيته ليس من الصعب أن أتصور أن الكونت فلاد الولاشي كان يمص الدماء حقيقة، وهي معلومة ليست بهيجة على الإطلاق كما هو واضح خصوصا لو كان متجها إلى هنا ليمص دمائي أنا بالذات!!

لابد وأن أجد عصام والجهاز حالا وأوقف هذا العبث ولكن كيف؟!!

- هبة الله محمد * .

الفصل الخامس

- "عبده ، عبد الرحمن، آسفة يا حبيبي لقد سقطت مني بعض الأطباق و.....من هؤلاء يا عبده؟"

تجمدت الأعين المذهولة على تلك الفاتنة التي خرجت من المطبخ، ووقفت في ثوب نوم قصير ترمقهم في دهشة!! يمكنك أن ترى فك وائل المتدلي وعيني ندى الجاحظتين ، يكفي أن نقول أن زوج منى النائم هو وزوجته من بداية السهرة على طاولة العشاء قد استيقظ فجأة وقد دب النشاط في عروقه!! كان يعمل هو وزوجته طوال النهار كالثيران من اجل تكديس المال في المصرف لذا كانا ينامان ببساطة كالأطفال بمجرد أن تضعهما على أي مقعد!!

مال هيثم على خطيبته صوفي قائلا بابتسامة خبيثة:

- "لم تخبريني أن والدك يعبث بذيله!!!"

ردت صوفي في غيظ:

- "اخرس يا أحمق!!"

- "لماذا؟"

- "لم أغادر المنزل لحظة فمتى دخلت هذه المرأة؟"

- "لابد وأنه أدخلها من ورائك يا حلوة"

وبدا واضحا من نظرة صوفي إلى خطيبها أنه لن يبقى خطيبها طويلا!!

أفاق الجميع من ذهولهم على صوت ارتطام رهيب بالأرض كان عبد الرحمن عبد الحي قد سقط مغشيا عليه، كان رأي هيثم الذي لم ينطق به كي لا تخنقه صوفي ، أن الرجل لم يحتمل الفضيحة!!!

وقبل أن يتحركوا لنجدة الأب كان هناك صوت اصطدام أشد بالأرض، لقد سقطت الخالة عطيات هذه المرة!!

نظر أيمن زوج منى إلى الخالة الممددة على الأرض ثم إلى الحسناء المندهشة قبل أن يقول:

- "من الطبيعي أن يسقط الرجال أمام هذا الجمال، أما أن تسقط النساء فهذا أمر غير مفهوم بالمرة!!"

ولسوء حظه كانت زوجته منى قد استيقظت هذه المرة!!!

تقدمت هدى بعدوانية نحو الجميلة الواقفة أمام باب المطبخ:

- "من أنتِ يا ....."

قاطعتها المرأة في برود:

- "أنا التي يجب أن أسألك هذا السؤال، من أنتِ؟ بل من أنتم؟ وما الذي تفعلونه هنا؟"

ردت هدى وهي تزفر في ضيق:

- " حسنا أنا ابنته و....."

- "غير ممكن، معقول، عبد الرحمن ينجب فتاة في سنك!!!"

علق أيمن في سخرية:

- "غير معقول طبعا، فإن عمي قد تخرج لتوه من دار الحضانة!!!"

لكزته زوجته منى في جنبه كي يخرس، بينما واصلت الحسناء:

- "كما أنه لم يخبرني أصلا أنه تزوج، أنتِ كاذبة لا يمكن أنت تكوني ابنته ،أنتِ تقريبا في مثل سنه!!"

- "فعلا يا هدى لقد تركتي دار الحضانة منذ شهر يا هدى، أنتِ فعلا في مثل سنه!!"

في هذه المرة كانت الضربة أشد حتى أنه تأوه بصوت مسموع، بينما قالت هدى في تحد عصبي:

- "والآن اخبرينا من أنتِ؟"

- "أنا زوجته!!!"

- "من ؟!!!!"

رددتها هدى في ذهول بينما قال وائل زوجها:

- "مستحيل، غير معقول إن عمي أصغر من أن يتزوج!!"

التقت عيناه بأيمن وانفجرا في الضحك، لكن الجميلة واصلت ببساطة:

- "بالفعل هو أصغر من أن يتزوج، لكنه الحب الذي جعلنا نتزوج مبكرا هكذا!!"

واصل أيمن ضحكه الهستيري وهو يقول:

- "هذه المرأة مخبولة تماما!!"

في هذه اللحظة دق جرس الباب قبل أن يفتكوا بالمرأة، قالت هدى في نفاذ صبر:

- "هل هذا وقته؟"

واتجهت بخطوات واسعة لتفتح الباب ، لكنها لم تجد أحدا:

- "لا احد، يبدو أن أحدهم يحاول أن يكون ظريفا كأن الأمر ينقصه!!"

وبمجرد أن أدارت ظهرها للباب حتى دق الجرس ثانية، استدارت وعيناها يتطاير منهما الشرر لكن وائل قال مسرعا:

- "دعيه لي يا هدى سألحق به هذه المرة وسألقنه درسا لن ينساه"

بمجرد أن فتح الباب حتى طالعه وجه شاحب آخر:

- "هل يمكنك أن تدعوني للدخول؟"

- "بالطبع تفضل.."

قالها وائل بابتسامة واسعة، بينما نظر له هيثم في غيظ، لقد ادخل الرجل الغريب بكل بساطة بينما كاد يخنقه هو بالثوم على الرغم من كون القادم وجهه أكثر شحوبا من أي وجه في العالم!!!

وقبل أن يفكروا في الوضع المعقد الحالي دق جرس الباب ثانية:

- "هذه لم تعد شقة،إنها محطة مصر!!"

قالها أيمن بينما اتجه وائل ليفتح الباب ثانية، تجمدت أعينهم على القادم، عصام الذي كان يقف وهواء العاصفة يتسرب عبر شباك صغير على السلم فيطير شعره ويعطيه مظهرا مخيفا، لكن أكثر ما أثار ذهولهم كان ذلك الطفل الصغير الذي كان يحمله بين ذراعيه!!

صرخت ندى ولسوء الحظ فإن عبد الرحمن عبد الحي كان مغشيا عليه كان لابد وأن يكون متيقظا ليهتف، إنها ليلة سوداء!!!

" هبة الله محمد حسن".

الفصل السادس

"استمع معي إلى سيمفونية الرعد .. اغرق معي تحت أمطار الشتاء لا تجلب معك أي نقود ..لا تخبر أحد بعد ذلك بأنك كنت معي ونصيحتي لك هي أن تتجنب الشمس بعد ذلك يا رفيقي "

كانت الورقة مطوية بعناية وبجوارها صورة لحسناء تحمل طفلا صغيرا وتقدمه قربانا لأفعى عملاقة صورة مرسومة بعناية فائقة حتى ليخيل لك بأنها تنبض .

الأجمل من ذلك كله وجود ذلك التجويف بداخل الحائط والذي يحتوى على قلادة بها نفس النقش الذي بداخل الصورة تلك القلادة الصغيرة التي لن يلاحظ اختفائها أحد أما الصورة نفسها فلن استطيع حملها الآن للأسف!!

يبدو أن مكتبة عمى مليئة بالأسرار وبالكنوز أيضا، هكذا تسللت تلك القلادة وحدها داخل جيبي سأبيعها غدا بثروة صغيرة أستطيع بعدها أن أفتتح أي مشروع ، أما اليوم فسأصعد إلى ذلك المعتوه الذي يسكن في الطابق العلوي لنستكمل أبحاثه على جهازه اللعين.

هكذا صعدت إليه في تلك الليلة المشئومة التي حاول فيها عمى عبد الرحمن عبد الحي الإصلاح بيني وبين ابنته .. ولكنني أكدت له أن كل شيء على ما يرام فتركني ليجلب شيئا ما من الخارج هنا وبحاسة الخبير التي أمتلكها استطعت أن أشم رائحة شيء ما مخفي بمهارة خلف تلك اللوحات مددت يدي وببساطة حدث ما حدث .

المضحك في الأمر أن خالة ندى تطلق عليَّ لقب شمام – بتشديد الميم – فقط لو تتيح لي الفرصة بأن ادخل بيتها لأشم شيئا ما !!

أي زمن هذا الذي نقلني إليه ذلك الجهاز اللعين ؟

استيقظت لأجدني بداخل كهف ما، بجواري أفعى نائمة، المرعب في الأمر أن الأفعى تحرس باب الدخول والذي كما أرى هو باب الخروج أيضا ، المخيف أيضا أن هذه الأفعى لا تشبه زوجتي ندى إلا في شيء واحد ألا وهو أنها لا تتخلص من بقايا طعامها أبدا، بل تنثره في كل الأرجاء حولها أو

تخبئه تحت السرير أو في غسالة الملابس !! ليس إهمالا منها فقط، إنما هو عبث طفولي قديم لأنها بعد ذلك ترميه وتنظف الأطباق، تلك الأفعى لم تنظف طبقها بعد!!

بقايا الهياكل العظمية تؤكد على ذلك!!

من حسن حظي أنها نائمة ..فقط سأحاول أن أتجنبها قدر الإمكان وأخرج .. ولكن إلى أين؟

***

- "إنها زوجته الأولى".

قالتها الخالة بعد أن استردت وعيها، أما عن الأستاذ عبد الرحمن عبد الحي فقد تعاون هيثم مع وائل على حمله و وضعه على إحدى الأرائك الموجودة في غرفة المعيشة .

- "اسمها (ليليان) لبنانية الأصل ولكنها نشأت وتربت في مصر ولهذا هي تتحدث المصرية بطلاقة و..."

جلبت لها ندى كوب ماء فرشفته الخالة وكأنها زهرة صبار وجدت أخيرا قطرات الندى ثم أكملت:

- "كانت قصة حبهم حديث المدينة بأكملها. هو طالب متوسط الحال في كلية الحقوق، وهى فاتنة كلية الآداب، لم يرها فتى إلا وأعجب بها حقا".

أطلق وائل صفير إعجاب وهو يقول :

– "بحق كل أساطير الرعب التي قرأتها، هي حقا فاتنة".

لو أن النظرات تقتل لكان وائل الآن وجبة دسمة لكائنات القبر !

قالت منى في خفوت :

- "ولكنه لم يتزوجها أليس كذلك؟ اقصد أنه تزوج بأمي ".

رد زوجها أيمن بينه وبين نفسه :

- "سيكون أحمق لو لم يفعل ذلك".

بشكل ما وصل كلامه إلى منى فداست بكعب حذائها على قدمه فتتطاير الشرر من عين هيثم المسكين، لا تنسوا بأنهم مازالوا في الظلام!!

ربتت صوفي على كتفه في حنان، ربما لأنه الوحيد الذي كف عن مغازلة ليلان ، ولكنها اكتشفت حقيقة بشعة كذلك ، لقد كف عن مغازلتها هي الأخرى!!

قطعت أفكارها تلك الصفعة المعنوية التي تلقتها كل واحده منهن، عندما قالت الخالة :

- "بل تزوجها وأنجب منها صبى صغير و ....."

هنا تذكرت ندى منظر زوجها عصام وهو واقف أمام باب المنزل وشعره يتطاير بفعل الهواء الذي كان يتسرب من النافذة فوق شعره، تذكرت بأنه كان يحمل طفلا بين يديه، وعندما نظرت إليه ليليان

تحولت إلى شيء يطير أو هكذا خيل لهم، تذكرت أيضا أن جارهم حسام حاول النيل منه ولكن عصام والطفل وليلان وحسام أيضا اختفوا في لمح البصر.

"إنها ليلة سوداء".

قالها عبد الرحمن عبد الحي وهو يترنح أمامهم.

نجمة مجهولة

الفصل السابع

- " إنها ليلة سوداء، لقد عادت"

قالها أبي وهو يواصل ترنحه قبل أن يسقط من جديد على الأريكة، نظرت إليه خالتي– ربما لأول مرة في حياتها – بإشفاق وهي تقول:

- "مسكين لقد صمد معها خمسة أشهر كاملة، وفي النهاية كان لابد وأن يهرب، حتى عندما علم أنها كانت حاملا لم يفكر في العودة لها قط"

قال وائل زوجي بابتسامة خبيثة:

- "خمسة أشهر يا له من محظوظ، أعطني أنا شهرا واحدا فقط!!"

نظرت إليه خالتي باشمئزاز وقالت:

- "مغفل أنت ككل الرجال، لم تكن لتحتمل الحياة معها يوما واحدا!!"

بينما كتمت أنا غيظي وبدأت أحاول استعادة شيء من هدوئي أو بالأصح برودي القديم. هدى الابنة الكبرى العاقلة الرزينة التي تحتمل سخافات زوجها التي لا تنتهي بل وتؤيده في بعض الأحيان دون أي اقتناع وطوال الوقت تواصل إقناع نفسها بأنه سيغدو عاقلا يوما ما لكن هذا اليوم لا يأتي أبدا، لم تكذب خالتي عندما قالت أنه مغفل لكن ليس ككل الرجال بل أكثر منهم بكثير!!

اهدئي يا هدى، اهدئي ،رحت أخاطب نفسي لكن هذه الليلة تفقدني صوابي بحق، سمعت أيمن يقول دون أن تفارقه ابتسامته اللزجة:

- "وما أدراكِ أنتِ بمثل هذه الأمور يا خالتي!!"

- "أنا أدرى من أي احد آخر بهذا الأمر بالذات لأن....."

وبدا أن الكلمات قد توقفت في حلقها قبل أن تحسم أمرها وتقول:

- "لأن ليليان خطفت الرجل الذي كنت أحبه!!!"

هل كانت خالتي تحب؟ خالتي التي تكره الرجال كالطاعون، هذه أكبر مفاجأة هذه الليلة!! لم يفكر أحدنا في شيء آخر سوى هيثم الذي هتف:

- "لحظة واحدة، هل يعني هذا أنك كنتِ تحبين عمي عبد.....؟"

ولم يكمل عبارته لأن كف صوفي هوى على قفاه مباشرة، ممتزجا برد خالتي المستنكر:

- "بالطبع لا!! هل جننت يا فتى؟ كنت أفضل أن أموت قبلها!! حتى الآن لا أعرف كيف تزوجته أختي أصلا!!"

رد أيمن ليعاندها:

- "لكن ليليان وافقت ،أليس كذلك؟"

- "كان عمك وسيما إلى حد ما بالرغم من دمه الذي كان أثقل من جوال البطاطس كما أن ليليان تختلف!!"

- "تختلف كيف؟!!"

قاطعته وقد أثار فضولي قصة خالتي أكثر من أي شيء آخر:

- "دعك من هذا، لكن من هو الذي كنت تحبينه يا خالتي وكيف خطفته منكِ ليليان؟"

- "كان زميلا لنا في كلية الآداب ، لم يكن حبا بالمعنى الذي فهمته ، كنت أحبه بينما لم يكن هو يبالي بأي شيء بمعنى أوضح كان حبا من طرف واحد، لكنني كنت اعزي نفسي بالأمل حتى ظهرت ليليان عليها اللعنة."

- "ثم"

- "لم أستطع أن أفهم ما حدث بالضبط، كل ما اعرفه أنها جرجرته ورائها كالكلب،حتى أصبحت هيئته غريبة مبعثرة، في آخر مرة رأيته فيها جاء وجلس معي وأخبرني أنه كان يعرف أنني أحبه، لكنه كان قاسيا وغبيا وأنه يتمنى الإفلات منها لكنه لم يستطع حتى الآن، إنها غير طبيعية، كان هذا ما قاله بالحرف الواحد، ولم أفهمه وقتها."

- "ولماذا لم يعد إليكِ وتتزوجا؟"

- "لأنه ببساطة مات!! كانت أسود أيام حياتي، لم يعرف أحد إن كان قتل أو انتحر ولم يرد والده أن يدخل في مشاكل أخرى يكفيه موت ابنه فأغلق الموضوع."

وخيل إليّ أنني لمحت سحابة دموع خلف نظارتها المربعة السميكة و.....

- " أنا دمي أثقل من جوال البطاطس، حسنا عندما أفيق يا عطيات سيكون لنا حساب آخر مع بعضنا!!"

كان هذا صوت أبي الذي يفيق كالعادة في اللحظات الهامة!! نظرت إليه خالتي في برود قبل أن تقول:

- "هذه هي الحقيقية يا عبد الرحمن، اعترف!!"

نظر إليها أبي في حنق قائلا:

- "على الأقل هو أخف من دمك!!"

ولم ينتظر ردها لأنه بدأ يولول قائلا:

- "ألا تكفي هذه المصيبة التي نحن فيها؟! لقد عادت ليليان كما أنها لم تتغير، لم تتغير يا عطيات!!"

- "وهذا ما يثير جنوني!!"

- "جنونك أنتِ فقط!! ولا شعرة بيضاء ولا.....هل كنت أحلم أخبريني أنني كنت أحلم ؟"

- "للأسف أنت لا تحلم.."

- "طوال عمري وأنا أقول إنكِ لا تأتين بخبر مفرح!!"

رمته خالتي بنظرة جانبية وهي تقول ببطء:

- "لكن كلنا كنا نعرف أن ليلان مختلفة!!"

- "اسكتي الآن يا عطيات، اسكتي."

ليليان لم تكبر كيف؟ وما معنى أن ليليان مختلفة ؟ وشعرت بمنى تميل عليّ وتقول:

- "يبدو أن أبي وخالتي يعرفان عن تلك المرأة أكثر مما يقولان.."

- "هل تعتقدين هذا؟"

- "بكل تأكيد"

خيل إليّ أنني لمحت ضوءا برتقاليا من الغرفة الجانبية، من هناك؟

– "لحظة يا منى"

كان ضوء ضعيف مرتعش لورقة تشتعل وعلى الإضاءة الخافتة لمحت وجها يقف ممسكا بالورقة وهي تحترق:

- "وائل ما الذي تفعله عندك؟"

انتفض جسده، ثم نظر إلي قائلا:

- "هدى لقد أفزعتني ، كما ترين، كنت أفكر في إشعال المدفأة مجددا بورقة لأن الجو أصبح باردا جدا، لكن يبدو أن هذا لن يصلح."

قالها قم أطفئ الورقة بسرعة في مطفأة السجائر قبل أن يخرج من الحجرة، تحسست أصابعي مكان الورقة على هدي الإضاءة الخافتة للشمعدان القادمة من الصالة.

كان معي كشاف صغير يعمل بالبطاريات الجافة فأشعلته واستطعت أن أرى المكتوب على ما تبقى من الورقة. كان ثمة كتابة بلغة ما لا أفهمها لعلها العبرية، وهناك نقش صغير لم استطع تمييز شكله احترق نصفه.

إن وائل زوجي غبي ومغفل وأحمق، لكن لماذا أشعر أن له دورا في كل ما يحدث هنا!!!

لا أعلم لِمَ وجدت نفسي أكور الورقة وأدسها في جيبي، واتجهت إلى الصالة ثانية وعيناي تبحثان تلقائيا عن وائل لكنه لم يكن هناك على الإطلاق!!

وشعرت بذلك الشعور الغريب،أن هناك أحد ما يراقبني، كأن النظرات تلسع عندما تصطدم بالجسد، ألتفت تلقائيا ووجدته هناك، ليس وائل لكنه ذلك الغريب الذي أدخله وائل والذي نسينا وجوده في غمرة ما حدث، كان يقف هناك يحدق بي ، هل كانت عيناه تتألقان حقا في الظلام،أم إنني كنت أتخيل!!!

الفصل الثامن

" أنا كجسد، مرهقه جداّ. أريد العبور إلى الجانب الآخر ولا أستطيع، ولكنني كروح. ظللت فترة طويلة هائمة في كل مكان. عرفت كل شيء وتعلمت كل لغات أهل الأرض. وتعاملت بها في أماكن شتى. كنت أحيانا النسمة التي تزكى النار ولكنها لا تشعلها؛ فدائما ما كنت احتاج إلى الشرارة الأولى لأبدأ، وكنت نادرا ما ارتوى من تلك النيران التي تشتعل وتتوهج ؛ فمن أين تريدني أن ابدأ أيها الغريب؟".

قالتها (ليليان) وهى تحتوى صغيرها وتلثمه على يديه.

لم أجد ما انطق به لذلك نظرت إلى الحطب المشتعل أمامي والى حسام الذي يشتعل بدوره في محاوله لإصلاح جهازه اللعين الذي جذبنا إلى هنا. ولم يخف علي وهج ابتسامتها الساخرة التي رمقته بها، وكأنها تعلم بأنه لا فائدة من المحاولة. وسيستمر هذا الجهاز اللعين في جذب كل من كان له صله بحماى اللعين، اقصد العزيز، الأستاذ (عبد الرحمن عبد الحي) وبمجرد أن تذكرته قلت لها :

– "لماذا تزوجت حماي ؟؟ .. ومن أنت بالضبط ؟؟؟".

قالت وهى تنظر بعمق إلى الأفعى :

- " أنا لا يوجد لي أي مصطلح في عالمكم، سمني مصاصة دماء إن شئت، ولكنني حقا أختلف. لي عالمي الذي خلقت فيه ومن أجله ولكنني تحديت الجميع حين أعلنت في فترة من فترات سباتي انضمامي إليكم يا بني البشر ".

هناك كلمات كثيرة تلتهمها النيران من قبل أن تنطق هي بها. الأمر أشبه بما تبقيه النيران لنا من فتات، لذلك لو كنت دخان لاستوعبت أكثر ما تقوله هي، ولكنني بشر !

زمجرت في وحشية فتراجعت الأفعى عن التهام (حسام) والذي لولا أنه الشيء الوحيد الذي ينتمي إلى عالمي لتمنيت أن أقدمه إليها بنفسي. جال بخاطري سؤال ثم نسيته على الفور .. ذكروني إن تذكرته أن أذكره !!

قالت (ليليان) في لهجة كمن يعزف ناي أو عود :

– " تزوجت حماك لأنه البشرى الوحيد الذي أحببته .. ربما كان الكائن الوحيد الذي سلب لبى .. كان مختلفا عن الآخرين، كان مميزا ودافئا .. كان ذا دم خاص وطبيعة مختلفة ".

دمعت عيناها عندما تذكرته؛ فهبط منها مزيج غريب من الدماء والصديد معا وكأنها فتحت للتو جرح قديم كان قد تورم وفسد !

تلك الزهرة الرقيقة الجميلة تبكى .. وأيا كان شكل دموعها فهي امرأة ..

وحيدة ..

حزينة ..

منكسرة ..

وأظنني لم أنجذب إليها بقدر ما أخشاها ولكنني أتذكر اليوم ما فعلته عندما كنت في التاسعة فقط من عمري ...

.....

" كنت في حديقة الحيوانات في الجيزة، وكنت أقف بجوار قفص الأسود، وقد رأيت عامل الحديقة يعامل لبؤة بقسوة ووحشية كي يجنى الكثير من الملاليم، التي تنهال عليه من ذوي النفوس المريضة من المتفرجين الجبناء.

كان ينهال عليها بالسوط من وراء باب القفص، وربما ساعده في ذلك أن زوجها قد مل منها، أو لعله أصبح لا يعبأ بها طالما أن اللحم يقذف تحت قدميه !!.

ذلك الكسول لو كان في الغابة لمات جوعا لأنها هي من تحضر له الطعام . لا حاجه له لديها الآن وهنا لا أدرى كيف تسللت إلى القفص وبمبرد صغير عالجت قفله ولأول مره أفعل ذلك و .....؟.

***

"إحداهن قد اختفت !!!!".

قالها (وائل) وهو ينهار أرضا .. فسنده أيمن وهو يقول بخوف :

"تقصد من ؟"

لم يحتمل قلب عبد الرحمن عبد الحي كل هذا .. فمن ذا الذي قال إذن :

" إنها ليله سوداء يا سادة ؟؟؟ .. ومن تلك التي اختفت وكيف عرفت أنا بهذا الأمر؟؟؟

إنها

ليلة

سوداء

بالفعل !!!!!".

نجمة مجهولة

الفصل التاسع

عصام وحسام وهدى والطفل الغامض كلهم اختفوا، يا ترى من التالي؟

ووائل لماذا أشعر بشيء مريب تجاهه؟ فزعه يبدو مفتعلا، وعندما سنده أيمن بذراعه خيل إلي أنني لمحت شبح ابتسامة تتلاعب على شفتيه، ومنذ فترة رأيته يختفي في الحجرة المجاورة مستترا بالظلام فما الذي كان يفعله بالضبط!! وبالمصادفة كانت هذه هي الحجرة التي دخلتها هدى ولم تخرج منها قط!!

وائل كلنا نعتبره مخبول فهو هو مخبول حقا ؟ أم أنه يتصنع أم أنني التي أصبت بالبارنويا أخيرا فأصبحت أشك في أصابع يدي !!

نظرت إلى هيثم خطيبي لأرى إن كان يشعر بما أفكر فيه فوجدته مشغولا بمتابعة ما يحدث، قال وائل بذات التصنع الذي لم أستطع أن ابتلعه قط:

- "هدى حبيبتي أين اختفت؟"

فرد عليه أبي:

- "كف عن الولولة كالنساء يا أحمق، لقد أخرسنا ندى بالكاد!!"

ويبدو أن ندى استغلت الفرصة لاجترار أحزانها:

- "عصام، النذل ، الجبان ، اللعين، أين ذهب ، وهدى أختي حبيبتي!!!"

فقال وائل:

– "لقد كانت هنا منذ دقائق"

جاءتني فكرة مفاجئة، كنت قد قرأت هذه الحيلة في الروايات البوليسية التي أدمنها، يلقى المفتش بطرف الصنارة إلى المجرم ليصطاده، يتصنع أنه يعرف كل شيء كل يوقعه في الكلام، لذا قلت بصورة مفاجئة:

- "أعتقد أنك أكثر من يعرف أين هي بالضبط يا وائل؟"

ولدهشتي رد بابتسامة قاسية وعينين لا تطرفان:

– "وأعرف أكثر من هذا بكثير أكثر مما يتصور أحدكم أنني أعرفه!!"

" هبة الله محمد حسن".

***

لنقل إن البداية كانت منذ زمن وحده عمى هو من يتذكره !!

ثم نظر إلىّ عبد الرحمن عبد الحي في فتور وقال :

- "هل تذكر يا عمى ذلك اليوم الذي أطفأت فيه عود الثقاب في قفا جارنا الذي هم أن يفتك بى ؟

لقد كنت محقا منذ اللحظة الأولى ولكن المشكلة لم تكن في ذلك الجار.

كنت أنت المشكلة يا عمى!! أنت الذي لا ظل لك، وأنت الذي يستطيع أن تعبر يده على اللهب دون أن تتأذى ".

الجميع يعرف أن وائل مجنون ولكنه تمادى كثيرا، هو أحمق وقد تسبب في كارثة ما والآن يحاول أن ينسب الأمر كله لأبى كي لا يلومه احد. ولكن لماذا يصمت أبى هكذا ؟

لماذا لا يرد أو يدافع عن نفسه. هناك أمر ما لا اعرفه، بعد عذاب قام أبى ونادي على خالتي لتتجه معه إلى المكتب ثم قال لمنى في همس :

– "أيقظى أمك وحاولي الاتصال بعم محمد السائق الخاص بخالتك واجعليه ينقلكم جميعا من هنا "

ثم نظر إلى هيثم وقال له "يمكنك أن تذهب معهم أنت أيضا فلا ادري أي لعنه قد تصيبك إذا ذهبت وحدك إلى منزلك"

وقبل أن اعترض أو يعترض أحد جذب أبى خالتي من يديها واخذ معه الشمعدان الوحيد وأغلق الباب.

ما معنى الذي قاله ؟

هل أبى قد تحول إلى شبح في ذلك السن ؟

هل له علاقة باختفاء عصام وهدى ؟

تمتم هيثم في حرج :

" صوفي ..أود أن أعتذر عن كل ما حدث ".

ردت منى وهل تشير لأيمن زوجها أن يستعد

– " لا تعتذر عن ذنب لم تقترفه يا هيثم .. أعلم بأن هدى ستعود .. أبى سيعيدها سالمه كما كان يفعل دائما عندما كنا صغار".

قالت ندى وهى تحاول أن تبتسم

– "نعم سيفعلها أبى تماما .. كما كنا صغار".

قلت وأنا مشتتة أكثر:

– " أنا لا افهم شيئا مما تتحدثان عنه .. هل يمكنكما أن تشرحا لي ؟"

قال وائل وهو يتحاشى النظر إلى هيثم الذي شحب وجهه أكثر من الأول

– "هل تعلم يا هذا بأي عائلة ستختلط ؟؟"

نظر إليه هيثم ببلاهة دون أن يجيب، صوفي التي لا تفهم شيئا أيضا لسان حالها يقول "ليتك لم

تأتِ الليلة هنا يا هيثم ، ليتك لم تأتِ"

ولكن وائل أجاب على سؤاله بنفسه دون أن ينتظر إجابة من أحد:

– "أنت ترتبط بعائلة الأستاذ عبد الرحمن عبد الحي يا هذا .. ظننتك تعرف هذا جيدا "

ثم انفجر في الضحك كبركان ينفث عن أحزانه في وجوهنا!!

"لماذا أغلق أبى باب المكتب وراءه ولماذا أخذ خالتي معه؟"

تساءلت بهمس فجاءت منى لتحتويني كما كانت تفعل دائما عندما كانت تشعر بمرضى وقالت:

– "هناك سرداب قديم له باب سرى في حجرة والدنا .. وأظن أن خالتنا لها شأن بكل ما حدث

الليلة وكذلك خطيبك "!!!

هل سقط هيثم مغشيا عليه ؟؟

لماذا اختفت ندى هي الأخرى ؟

ما الذي يحدث؟؟ ..ما الذي يحدث؟؟

الفصل العاشر

الخاتمة

– "زوجك الأحمق هو المتسبب في كل شيء، وأنت يا هذا كف عن الارتعاش كالمروحة التي تعمل على أقصى سرعة"

قالها عبد الرحمن عبد الحي للشاب النحيل الشاحب الذي كان يقف في ركن الغرفة مرتجفا كمن سكب على رأسه دلو من الماء،قالت هدى وهم تضم كفيها:

- "أبي، أنا لا أفهم أي شيء"

- "هذا لأن الحب قد جعلك كالعمياء منذ البداية، طوال عمري كنت أقول لامك رحمها الله ابنتك هذه عاطفية وستتسبب لكم في المتاعب"

قالتها عطيات في تنمر:

- "انتظري أنتِ يا خالتي أريد أن افهم من أبي"

رد عبد الرحمن بعصبية وهو يهز رأسه:

- "تريدين أن تفهمي، حسنا زوجك الأحمق كان يعتقد أننا عائلة من مصاصي الدماء، ربما كان هذا هو السبب الذي تزوجكِ من اجله أصلا"

- "ماذا؟"

- وقد أحضر هذا المغفل الذي يقف بجوارك ليتم معه طقوس استدعاء الكونت دراكولا ليحل في جسدي لأصير شيخ مصاصي الدماء!!"

- "لقد اخبرني أنه....."

- "وهل صدقته؟"

- "لقد شككت في أمره!!"

وأمسك الفتى المذعور من قميصه قائلا:

- "تكلم لا تقف كالمسمار هكذا!!"

ابتلع الفتى ريقه بصعوبة وهو يقول في تلعثم:

- "الأستاذ وائل طلب منى المجيء إلى هنا في عربة سوداء تشبه تلك العربات التي تظهر في الأفلام، وأن أتلو كلمات معينة طلبها مني داخل الشقة وهو من أدخلني بنفسه،أأ.. أنا لا ذنب لي"

ضربه عبد الرحمن على قفاه قائلا :

- "اخرس، والآن المصيبة هي أن ذلك المعتوه بدلا من أن يستدعي روح الكونت استدعى....."

وتلاقت عيناه بعيني الخالة عطيات فارتجفت مرددة:

- "ليليان!!"
- "ليليث!!"
- "زوجتك الأولى!!"
- "ليليان أو ليليث هي الزوجة الأولى لآدم التي تمردت على سلطته فسخطها الله مسخا كما تقول الأساطير العبرية،ورد في الكتاب المقدس وصف (ليليث) في ثلاث نصوص، أولا وصفت بأنها جميلة جدا ومغرية للغاية وكانت تتجسد ليلا أمام الرجال لإغوائهم ومن ثم تقتلهم، وصفت بأن لها أجنحة ومخالب وكانت تأتي ليلا لقتل الأطفال ولقبت ب(قاتلة الأطفال)، وعرفت (ليليث) أيضا على أنها الحية التي أغوت (آدم) و (حواء) للأكل من الشجرة المحرمة ، إنها أول وآخر مصاصة دماء أقابلها في حياتي"

وهذه المرة كان الدور على هدى كي تسقط مغشيا عليها!!

***

- "أسنديها يا عطيات وأنت يا هذا قم وساعدني في فتح هذا الباب"

قالها عبد الرحمن عبد الحي وواصل دون أن يلتفت إلى عطيات:

- "لقد صنعت ليليان هذا السرداب أثناء زواجنا كي تصطاد فيه ضحاياها ولحسن الحظ لم تعتبرني واحدا منهم، لقد أقنعت الفتيات وهن صغيرات أنني احتفظ هنا ببلورة سحرية تجعلني أرى ما يفعلن طوال الوقت واعرف من أخطأت ولو حاولت واحدة منهن الدخول فسأعرف"

- "فكرة ذكية بالرغم من كونك لا تتحلى بأي ذكاء يا عبد الرحمن، هدى أفيقي يا ابنتي"

كتم عبد الرحمن غيظه قائلا:

- "لن تتغيري أبدا يا عطيات"

ثم زفر في ضيق وهو يواصل دفع الباب مع الشاب النحيف:

- "المشكلة أنني لا أجد القلادة في أي مكان بدونها لن يكون لدخولنا السرداب أي معنى ولن استطيع إكمال طقوس صرفها"

ثم تأوه وهو يتحسس ظهره في ألم :

- "عجوز متهدم وشاب هش كالبسكويت لن يتزحزح هذا الباب أبدا"

- "لقد انفتح أخيرا يا أستاذ"

قالها الشاب في شعور بالخلاص بينما نظر عبد الرحمن مصعوقا بالداخل:

- "أنتم!!"

***

الأفعى وعصام ودكتور حسام المرتبك مع جهازه الأحمق و ليليث:

- "أستاذ عبد الرحمن"

- "عمي"

- "حبيبي"

- "إفرررررررررراج"

قالها عصام في حماس وهو يحاول الخروج قبل أن تعترض الأفعى طريقه، كأنها تقول إلى أين يا حلو:

– "هذا الجهاز اللعين، قد نقلنا إلى هنا، وقد حاول حسام مع الجهاز الاحتياطي فانتقل معي"

نظر له عبد الرحمن في غل:

- "وهذه القلادة، كيف وصلت إليك؟"

- ""أأأأأأأأأأأأأأ..."""

- "ألم أقل من قبل انه شمّام"

قالتها عطيات في شراسة وهي تتقدم تجاه عصام قبل أن تمنعها الأفعى التي نظر لها عصام في امتنان!!

تجاوزت ليليث كل هذه المحاورات وهي تنظر إلى عبد الرحمن في وله:

- "لقد ضعت من دونك يا حبيبي، تعال، تعال إليّ ستعيد معي شبابك القديم وتعود وسيما كما كنت من قبل"

أخرج الشاب النحيل من جيبه حزمة ثوم وأشار بها من طرف خفي إلى عبد الرحمن الذي هز رأسه بمعنى أن ذلك لن يفلح معها:

- "أنا آت إليك يا حبيبتي"

- "الرجال هم الرجال!!"

قالتها عطيات في حنق بينما أفسحت له الأفعى الطريق:

- "لي لي"

- "سي عبده"

قالها عصام في سخرية ، وهو يهز القلادة في يده، وقبل أن يفهم احد أي شيء كان عبد الرحمن قد انتزع القلادة من يد عصام ولفها حول عنق ليليث التي سقطت في حضنه متحجرة وقد تحولت إلى تمثال!!

***

- "لا أصدق أن هذا الكابوس قد انتهى"

قالها عبد الرحمن وهو يزفر في راحة، بينما قالت هدى:

– "وأنا لا اصدق شيئا مما يحدث"

التفت وائل إليها قائلا:

- "هدى هل يمكنك أن تغفري لي....."

- "ليس الآن يا وائل حسابنا طويل معا"

حك مقدمة جبهته بيده وهو يقول:

- "لكن....."

- "لا يوجد لكن....."

- "أنا أتحدث عن أمر آخر هل يمكنني الاحتفاظ بتمثال ليليث؟!!"

لو كانت النظرات تحرق لتفحم في مكانه!!

- "رائع يا عمي لم أتصور أبدا أنني سأناسب عائلة مثيرة بهذا الشكل أشعر أنني في فيلم رعب....."

وفي لحظة كاد هيثم يتفحم هو الآخر بفعل نظرات صوفي، فحاول أن يخرج من الموقف بأن مال عليها ليسألها :

-"هناك شيء واحد فقط أريد أن أسأل عنه ، هل أمك متوفاة أم حية؟"

- "متوفاة طبعا كما قلت لك"

- "إذن لماذا كان أبيك يطلب من منى أن توقظها وقد....."

- "إن أبي لم يستطع أن يتجاوز محنة وفاتها بعد، ومازال أحيانا يتحدث عنها كما لو كانت حية و....."

توجهت نظرات الجميع إليهما فاحمر وجهيهما وصمتا دفعة واحدة،وقال هيثم في ارتباك:

- "كنت اسأل سؤالا واحد ، لماذا اتصل بي عصام لآتي إلى هنا؟"

- "لأصرف نظر عمي عن سرقة .....أعني.....فيما بعد"

تركزت نظرات عبد الرحمن وعطيات على وجه عصام فأشاح به بعيدا وقالا في نفس واحد تقريبا:

- "ندى، هل ترغبين في الاستمرار مع هذا الرجل؟"

- "أحبه يا أبي"

- "اشربي إذن"

قالها عبد الرحمن في غل، وهو موشك على حملها وإلقاءها من النافذة مع زوجها أما أيمن فقد قال بلهجة الرجل العملي:

- "اقترح يا عمي أن تبيعوا التمثال والقلادة لأحد المتاحف سيدر عليكما مبلغا كبيرا"

وكانت منى الوحيدة التي أيدت زوجها لأن الأمر يتعلق بالنقود التي تعشقها أكثر من عينيها، لابد وأن عقلها قد حسب نصيبها في التركة في لحظة:

- "نعم يا أبي، لم لا؟"

- "ومن أدراني أن أحدا لن ينزع القلادة"

وأكمل في خفوت دون أن يسمعه أحد:

- "بالرغم من كوني في أوقات أشعر بالحنين إليها."

- "هل تقول شيئا عبد الرحمن؟"

- "لا ،لا شيء يا عطيات، هيا اذهبي مع الأولاد لتوصيلك دعينا نرتاح قليلا"

- "وهل أنا التي تقل راحتك؟ و....."

قاطعها صوت بكاء الرضيع :

- "لقد نسينا أمره تماما"

مالت عطيات عليه وقالت:

- "سآخذه أنا، أنت لا تستطيع أن تعنى بالأطفال.."

قال وائل بسرعة:

- "ومن أدراك انه طبيعي؟ أنسيت من أمه؟"

- "اخرس أنت"

قالتها عطيات فخرس وائل على الفور، تنهد عبد الرحمن قائلا:

- "هو طفل لا ذنب له على أية حال"

- "أليس هو ابنك؟"

- "ابني كيف سيكون رضيعا؟ لقد تركت ليليان حاملا منذ أكثر من عشرين عاما"

- "لو لم يكن قد مات فالمفترض انه صار شابا الآن"

قال وائل باهتمام:

- "ما زلت تفترض يا عمي أن مقاييس عالمنا تسري عليها"

ظهرت الحيرة على ملامح عبد الرحمن، بينما قالت عطيات بتحفز:

- "أنت من ورطتنا في كل هذا يا عبد الرحمن"

- "عطيات....."

تنحنح الشاب صديق وائل قاطعا الشجار الذي يوشك أن يشتعل من جديد وهو يقول:

– "هل يمكنني الذهاب الآن؟ إن زوجتي نائمة مع طفلنا الرضيع ولو استيقظت ولم تجدني فستكون ليلتي سوداء"

ضحك عبد الرحمن قائلا:

- "ليس أسود من هذه الليلة صدقني"

هبة الله محمد حسن

تمت بحمد الله